القصف الاستراتيجي: الوجه الآخر للحرب

عامر محسن

ظهرت فكرة «القصف الاستراتيجي» خلال فترة ما بين الحربين، ضمن مجموعة من النظريات التي برزت على يد مفكرين عسكريين غربيين، أبهرهم التقدّم التكنولوجي وآلات الحرب الجديدة التي ظهرت خلال الحرب الكونية. هكذا كان الباحث الايطالي غيليو دويه أهمّ من نظّر للقصف الاستراتيجي (كما نظّر البريطاني فولر لسلاح المدرعات والحرب الخاطفة)، محاججاً بأن سلاح الجو قادر، في المستقبل، على حسم الحروب من دون جنود ومعارك وخسائر.
بدلاً من مواجهة جيش العدو في الميدان ومناطحة فرقه بين الخنادق يمكن، بحسب النظرية، أن تتجاوز الأساطيل الجوية جحافله، وأن تقصف طرق مواصلاته ومصانعه في عمق بلده، ما سيدفع آلته العسكرية الى الانهيار والاستسلام من دون الخسائر المروعة التي شهدتها مسارح الحرب العالمية الأولى (بل أنّ الجناح الأميركي في نظرية القصف الاستراتيجي، «المدرسة التكتيكية»، عرض للفكرة على أنها نموذج «أخلاقي» في الحرب).
خلال الحرب الثانية، جاء تطبيق «القصف الاستراتيجي» ضدّ المانيا (على يد البريطانيين أوّلاً، ومن ثمّ الأميركيين) على صورةٍ مخالفة بالكامل للنظرية: تمّ استعمال أسراب القاذفات أساساً لمسح المدن الألمانية والمراكز السكانية الكبرى، ما تسبب بمقتل مئات آلاف الألمان. الخيار باستهداف المدنيين كان واضحاً منذ أن صادقت حكومة تشرشل على ورقة مستشاره، فردريك لنديمان، الذي أوصى باستهداف المدن الصناعية وتدمير أكبر عدد ممكن من المنازل، خاصة في المناطق الفقيرة المكتظة، لتشريد السكان واضعاف ارادتهم.
بالنتيجة، قامت الحملات الحليفة باستهداف الطبقات الأقل دعماً للنظام النازي في المجتمع، فتم تدمير إحياء الطبقة العاملة في هامبورغ وهانوفر، من غير أن تعرقل هذه الغارات آلة الحرب الألمانية أو تؤثر في مسار الصراع. بحسب البرت شبير، وزير التصنيع الحربي لهتلر، لم تعرقل الغارات الضخمة الانتاج الصناعي الألماني، ولم تكن مركّزةً بشكلٍ يضرب مفاصله ويشلّه (يقول شبير، مثلاً، أنه في مرحلة من الحرب، كانت المانيا تعتمد على معمل واحد لا غير لانتاج المحامل الكروية، التي من دونها لا يمكن تصنيع آليات أو دبابات، ولكن الطيران الحليف لم يفكّر بقصفه).
لعقودٍ بعد الحرب، وفي ظل طغيان رواية المنتصر والارث الثقيل للمحرقة، التي منعت أي مقارنات أخلاقية بين الألمان وخصومهم، لم تكن هناك أصوات تعبّر عن معاناة المدنيين الألمان من القصف الحليف. ثم صدرت نصوصٌ مؤخراً، أبرزها لوينفرد سيبالد في كتاب بعنوان «التاريخ الطبيعي للتدمير»، تصف حالة المدن الألمانية المدمرة خلال الحرب وبعدها.
كانت القيادة الألمانية تحمل مشروعاً عنيفاً للهندسة الاجتماعية (لا تجاه اليهود وحدهم، بل ايضاً السلاف والاسيويين)، الا أنّه من المسكوت عنه أن تاريخ اوروبا كلّه، في القرنين الماضيين، كان تاريخ «هندسات اجتماعية» متفاوتة في عنفها. كما أشار الزميل سيف دعنا في مقالٍ أخير له، فإنّ «الفضيحة» التي أثارت روع الانسان الغربي بعد الحرب، وجعلته يكفر بالحداثة، لم تتعلّق بنوعية العنف الذي مورس خلالها (فأكثر التكنولوجيا القمعية، من معسكرات الاعتقال الى القصف الاستراتيجي، كانت تمارس في المستعمرات بشكل اعتيادي)؛ بل لأنّ تقنيات الهيمنة والقتل هذه باتت تُستخدم، لأول مرة، داخل اوروبا وضد الانسان الأبيض نفسه.

تقرير

مخيم شاتيلا: وهج «الثورة» السورية يخبو

تبدّل المزاج العام في مخيم شاتيلا. غابت «رهجة» أبناء شاتيلا تجاه «الثورة» السورية، وغابت معها صور «الشهداء». ببساطة، ما يجري هناك «طوّل»، وعبء النازحين أتعب كاهل اللاجئين

قاسم س. قاسم

الصورة الكبيرة لشاب فلسطيني «استشهد» في صفوف «جبهة النصرة» في القصير، والتي كانت مرفوعة على أحد مداخل مخيم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين في بيروت، أزيلت من مكانها. رُفعت مكانها صور لمنفذي عمليات الطعن والدهس في القدس المحتلة. «المزاج تغيّر»، يقول مسؤول أحد الفصائل الفلسطينية في المخيم. «في الحرب الأخيرة على قطاع غزة، شعرنا بأننا متروكون وحدنا أمام كيان يقول الجميع إنهم يكنّون العداء له». بعد مرور خمس سنوات على اندلاع الأزمة السورية توقف أغلب أبناء شاتيلا عن متابعة أخبار الشام. «ما يجري في فلسطين وتداعيات الانتخابات الإسرائيلية علينا أهم»، قال محمد عدوان صاحب محل هواتف على طرف المخيم. أكد الشاب العشريني أنه «في بداية الثورة كنا نتابع ما يجري بحماسة، خصوصاً بعد سقوط أنظمة عربية عدة. كنا نتوقع حدوث الأمر نفسه مع النظام السوري. لكن مع مرور الوقت وتدخل دول عدة، تبين أننا كنا نعيش كذبة كبيرة. حتى الثورة التونسية التي كانت أجمل الثورات تبين أنها كذبة كبيرة». هكذا، فرضت «الثورة» السورية إيقاعها على مخيمات الفلسطينيين في لبنان ـ ومنها مخيم شاتيلا ـ شأنها شأن بقية المناطق اللبنانية.
منذ أربع سنوات، كانت صور شبان فلسطينيين سقطوا قتلى في المواجهات ضد الجيش السوري تنتشر على جدران المخيم. ورغم رفض غالبية الفصائل «توريط» المخيمات في شأن يختلف عليه الفلسطينيون كما اللبنانيون، لم يجرؤ أحد على انتقاد هذه الظاهرة خشية وقوع «اشتباك مسلح داخل المخيم»، كما يقول أحد المسؤولين الأمنيين في شاتيلا. انقسام الفلسطينيين بين مؤيد لـ«الثورة» ورافض لها ومطالب بالنأي بالنفس عنها، لم يحل في بداية الأحداث دون انتساب عدد من سكان شاتيلا الى فصائل المعارضة السورية المسلحة، أو على الأقل التضامن مع الحراك السوري. يقول مسؤول فلسطيني: «كنا نستيقظ لنكتشف أن أحد أبناء المخيم اختفى. لاحقاً، كان هؤلاء يتصلون بأهاليهم لإخبارهم بأنهم في سوريا». وفيما تفيد معلومات أمنية بأن «أغلب الذين ذهبوا الى سوريا قتلوا ودفنوا هناك»، يؤكد مسؤول أمني أن «عدد من قتلوا في سوريا من سكان المخيم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. أما من علقت صورهم سابقاً على جدران المخيم، فهم من الوافدين اليه وليسوا من أهله».

> عدد من قتلوا في سوريا من سكان المخيم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة

اليوم، يمكن زوار شاتيلا الشعور بتبدل المزاج الفلسطيني بمجرد النظر الى جدران المخيم والحديث مع سكانه. يقول زياد حمو، مسؤول اللجنة الشعبية، إن ما ساهم في تبدل المزاج الفلسطيني هو «تحول التحركات السلمية الى أعمال مسلحة». أضاف: «عندما يحتج الناس، فهم يحتجون للمطالبة باستقرار أمني وراحة اقتصادية، لكن ما جرى في سوريا عكس ذلك».
لكن أكثر ما أثر اجتماعياً واقتصادياً في أبناء شاتيلا كان نزوح عدد كبير من أبناء مخيم اليرموك إلى مخيمهم. لم تنحصر حركة النزوح بالفلسطينيين فقط، بل زاد عدد السوريين القاطنين فيه ثلاثة أضعاف.
وتفادياً لأي إشكال أمني، وخوفاً من تسلل مطلوبين واحتمال تشكيل خلايا نائمة، طلبت اللجنة الشعبية من النازحين ملء استمارات تتضمن معلومات شخصية عنهم، وعن أسماء المناطق التي نزحوا منها، إضافة الى عدد الأفراد المقيمين في الغرف المستأجرة، ومنع تأجير الغرف لأفراد من دون عائلاتهم.
«استقبال النازحين أمر مقدس بالنسبة إلينا. لكن الضغط على البنية التحتية للمخيم يشكل عبئاً كبيراً»، بحسب مسؤول فلسطيني في منظمة التحرير. الضائقة الاقتصادية التي يعيشها الفلسطينيون سرّعت تبدل مزاجهم، إذ إن «اليد العاملة السورية صارت تنافسنا في العمل حتى داخل المخيم»، يقول أحد أصحاب بيع الخرضوات، مضيفاً «لم نعتقد أن الازمة ستستمر كل هذا الوقت وأن مكوث النازحين سيطول». وقال حمو إن «الفلسطيني ـ السوري عندما نزح الى لبنان، لاحظ الفرق في المعاملة. في سوريا كانوا بمثابة

تقرير

الحريري في جولة «تعويم» سعودية

ميسم رزق

لم يمضِ وقت كثير على التغييرات السياسية في المملكة العربية السعودية، حتى انطلق رئيس تيار المستقبل سعد الحريري في جولة على عواصم عربية وغربية، بحثاً عن رصيد دولي قبل التسوية الكبرى. يبدو الحريري كأنه يحاول استنساخ تجربة والده الذي اكتسب شرعية دولية عبر علاقات كوّنها برعاية المملكة ومباركتها، ليتحوّل إلى وسيط سعودي لحل أزمات عربية وإسلامية، جمع من خلالها رصيداً حمله وعاد به إلى لبنان لإحكام قبضته السياسية والاقتصادية. الحراك الإقليمي والدولي الذي استأنفه الحريري الابن، منذ أشهر، من القاهرة إلى باريس فواشنطن ثم موسكو، «محاولة سعودية لتعويم الحريري من جديد»، على ما تقول مصادر مقرّبة من الرجل. الرصيد الذي حظي به الأب، هو الذي يحاول الابن، اليوم، لملمته ليرجع به إلى لبنان مع حصول أي تسوية كبيرة. يقول مستقبليون إن «الحريري يستغل حالياً عطلته من رئاسة الحكومة، لتعزيز رصيده على الساحة، على غرار ما تفعل باقي الأطراف». وما يحصل «تُعدّ المملكة شريكاً أساسياً فيه، لأنه ليس من السهل أن تزور شخصية لا صفة رسمية لها مسؤولين عرباً وأجانب، وأن تدخل الى البيت الأبيض وتلتقي بمسؤولين كبار فيه من دون أن تكون الوساطة الملكية حاضرة». هذه الحيثية العربية والدولية التي تُعطى للزعيم الشاب، لا سيما بعد التغييرات الجذرية في الأروقة الملكية، مع إزاحة جناح بكامله وتسلم جناح آخر الحكم مكانه، هو بحسب مقربين من الحريري «قرار سعودي بتتويج سعد، رغم كل الكلام عن خلافه مع وليّ العهد محمد بن نايف، كوديعة المملكة في لبنان وممثلها كما كان والده، وهو الممثل الأساسي للطرف العربي على الساحة الداخلية، بعد نضوج التسوية، وهي على ما يبدو تقوم بإعداده لهذه المرحلة».

> رواتب موظفي مؤسسات الحريري لم تصرف منذ ثلاثة أشهر

ولا شك في أن أحد أكبر المكاسب السعودية من «استثمار سعد في هذه المرحلة» هو في كونه «الوحيد القادر على تبليغ رسائل سعودية بأنها نموذج للاعتدال، نظراً إلى المنهجية التي فرضت على سعد اتباعها بالانفتاح حتّى على ألدّ خصومه الداخليين، وتحديداً حزب الله، عبر حوار بات يرى فيه المستقبليون ورقة رابحة في أيديهم»، وهي رسالة لن «يستسيغها أحد لو كان عادل الجبير، وزير الخارجية السعودي، هو الوسيط»! إذاً تريد المملكة أن تقول علناً إنها «تحتضن سعد الحريري، وإلا لما كانت انطلاقاته الى الساحات العربية والدولية لتكون من مطار الرياض».
لكن ماذا عن تعدّد الرؤوس داخل تيار المستقبل في ظل غياب الحريري حضوراً ومالاً، إذ لم يعُد خافياً أن رواتب الموظفين في مختلف مؤسسات الحريري لم تصرف منذ ثلاثة أشهر، في حين أن شخصيات مستقبلية تستفيد من علاقاتها العربية لتأمين أموال ومساعدات